

## المثقف.. صانع الغد



يُنظر الناس باستمرار إلى المثقف أزهه حالة مختلفة منهم من رأه فوق الناس وافتتن به واعتبره الأسمى الذي قصرت أفهم الناس عن إدراكه والارتقاء لمستواه ومنهم من استراغ في أمره وشك فيه واتهمه بالجنون أو بالزيف والمضلal عن الهدى والخروج على أفكار الجماعة وقيمها. فهو عند البعض نبيٌّ هادٍ يلاقي العنت والرفض لعدم قدرة الناس على استيعاب ما يبشر به وهو عند الآخرين في أدنى المنازل مرتبة لأزهه في نظرهم متمرد على الأعراف خارج على قيم المجتمع يسعى للخلاص من المواريث القديمة وربما السعي لهدمها وتدميرها . وهو لدى فريق ثالث مستراغ في أمره محير في سلوكه غامضة أفكاره. والمثقف بدوره يجد نفسه في وسط هذا التجاذب في حرج من أمره فهو مع نفسه مبشر بأفكار وقيم يراها ضرورية لإحداث التطور في المجتمع والارتقاء به وهو داعية للتغيير وتجاوز الموروث والمعاشر إلى الجديد الذي يتصور أزهه لابد منه لإنعاش الحياة من جمودها وإحداث الحيوية فيها لأنَّ الزمن قد تجاوز تلك الأنماط القائمة وينبغي الانتقال لأنماط أخرى أكثر ملائمة. والناس بطبعهم يخافون الجديد ويخشون من المستحدث الذي قد يعصف بقيمهم وطرائق حياتهم وأساليب تفكيرهم التي ألفوها وارتضوها . ولعل من المثقفين من يبالغون في طروحاتهم وقد يتجاوز بعضهم الحدود إلى نقاط شائكة وحرجة تصدم الناس في مشاعرهم وتؤذن ضمائتهم وقناعاتهم . ولكن الأمر ليس كلَّه كذلك فكثير من الأفكار الجديدة التي يتم طرحها وإن كانت غريبة على المجتمع إلا أنَّها ضرورية بالفعل للتحديث والتطور ولمواكبة الانتقال من مرحلة زمنية إلى أخرى وإذا

كان بعض المثقفين يشطرون بعيداً في أفكارهم التي ينادون بها فإن "الأكثرية منهم ليست كذلك ولكن الناس كما قيل قديماً - أعداء ما جهلو - لهذا تهب الأعاصير وثور الاحتجاجات في وجه أولئك المنادين بالجديد من الأفكار والقيم وقد كان ذلك حالة شائعة في مختلف العصور والأزمنة منذ سocrates أبي الفلاسفة الذي حُكم عليه بشرب السم لأنّ "أفكاره تفسد شباب أثينا كما زعموا وعللوا وحتى غاليليو الذي أُحرق بالنار لأنّه قال بكروية الأرض. وهذا دائماً يواجه الجديد بالرفض لأنّ الناس يرون فيه خروجاً وتمرداً على ما ألفوه ومضت عليه أعرافهم وورثوه عن أسلافهم واستقر في وجدانهم وأصبح من الثوابت في وعيهم ولكن الجديد دائماً هو الغالب والمنتصر وإن طال الزمن واشتد الرفض والمقاومة ذلك لأنّ الجديد هو الغد المقبل والقديم هو الأمس الأفل والحياة دوماً صباح جديد تشرق شمسه ماحية ليلة الأمس بكلّ ما اكتنفها من ظلام وسكون إذا قدرنا أنّ الليل هو الظلام والسكون والنهر هو الحركة والنشاط. تلك هي سنة الدهر وذلك هو دأبه ومنهجه منذ أن كان الكون وبدأت الحياة. ولكن الحياة لا تولد جديدة مع ذلك الغد الآتي وإنما هي استمرار لليلة الأمس بأسلوب مختلف وطريقة أخرى "فلولا ظلام الليل ما طلع الفجر" كما قال القائل قديماً. لولا ليلة الأمس ما كان هنا هذا الصباح المشرق. الحياة نعم تحمل بذور تغيير نفسها في نفسها وإن كنا في الغالب لا نحس بذلك التغيير ولا نشعر به ولكن الحياة في تغيرها لا تنفصل جذرياً عن أمسها الذي انقضى وإنما تأخذ بذرة التغيير من ذلك الأمس مهما اختلفت أوراق الشجرة وألوان الزهور وطعم الثمار يحصل التغيير عنيفاً حاداً في بعض الأحيان كالزلزال القوية والبراكين العاتية ولكن سر الاتصال بين حياة أزالتها التغيير ودك معالمها وبين حياة تنشأ من أنقاض براكين ذلك التغيير وعواصفه يبقى مستمراً وثابتاً في خيوطه الدقيقة التي لا مجال لإدراها إلا بالفطنة والحدس. الحياة هي الحياة والناس هم الناس مهما كانت قوة التغيير والتبدل. الحياة إذاً تستمر وتمضي وخيوطه الاتصال بين حلقاتها ممتدة وإن دقّت وتوارت في عتمة الاستثار وشبكة تعقد الخيوط. والمصراع أيضاً يظل قائماً بين جديد يوشك أن يظهر وقديم يتثبت بمكانه قبل المغيب وحياة ترسخت وغامت بذورها في الأعماق وحياة تريد أن تبدأ بصورة مختلفة وطريقة مغايرة لتسود وتنهي تلك التي قبلها. والمثقف هو الأداة التي من خلالها ينبت الانتقال بين حياة جامدة ثابتة وبين حياة متحركة قادمة وهو لسان الدعوة لهذا الجديد المقبل يروّج له ويبشر بما فيه والمثقفون بين البشر صنوف مثلهم مثل غيرهم من صنوف البشر الآخرين وهم يختلفون في نظراتهم للأشياء وفي معالجتهم للأمور بحسب ثقافتهم ونشأتهم وأحياناً حسب نفسيتهم الذاتية أيضاً فهذا شديد الانفعال ملتهب الإحساس وذاك شديد الأنانية بطبيء التأمل بارد الحركة لا يكاد يثيره شيء وهناك المتوسط الذي لا هو بالمتأنى الجامد ولا هو بالمتطرف المستثار لأوّل وهلة. والنشأة العلمية والثقافية تفعل فعلها

الأكبر في النظر إلى الأشياء والتنظير لها. فهذا يرى في الموروث أساساً طيباً للانطلاق منه نحو الغد القادم. وصاحبـه يرى أنَّ ذلك الغد لا يمكن الوصول إليه إِلَّا بفكر جديد كامل الجدة بعيداً عن الأمس بكلٍّ ما فيه إذا كنا بصدده غدٌ نريده مختلفاً عن أمسنا المنصرم يقودنا نحو حياة جديدة حية. وآخر يتوسط بينهما بدعوة للجديد من غير انقطاع عن الماضي وربما كان هناك من يدعونـ إلى الجديد ولكن بحذر ومن يدعونـ للاستفادة من القديم ولكن بحذر. وبمثل النظرة فيما بين القديم والجديد تكون النظرة كذلك إلى الآخر - الأمم الأخرى والثقافات الأخرى - إلى أي مدى ينبغي الأخذ مما لدى الآخر وإلى أي مسافة ينبغي الاقتراب منه لاسيما في هذا الزمن الذي اختلطت فيه الأمم وتدخلـت أفكارها وقيمها. بل إنَّ هذه هي المشكلة الأكبر التي تشـغل فـكر مثقفينا وتحـرك رؤاهـم ومنظـلـقاـتهم ودعـواـتهم باعتـبارـها القضية التي على الأُمّـةـ التعـامل معـها خـصـوـعاًـ لهاـ أوـ نـزـوعـاًـ عنـهاـ أوـ قـبـولـ بعضـهاـ والإـعـراضـ عنـ بعضـ، وكـماـ تـأـرقـ أـهـلـ الفـكـرـ وـذـوـهـ التـنـظـيرـ عـنـدـنـاـ فـيـ التـعـاطـيـ معـ هـذـهـ القـضـيـةـ النـازـلـةـ تـأـرقـ لـهـاـ كـذـلـكـ نـظـرـاؤـهـمـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ الأـمـمـ الـأـخـرـيـ وإنـ بـدـرـجـاتـ مـتـفـاـوـتـةـ بـحـسـبـ نـصـيبـ كـلـ أـمـمـةـ مـنـ التـحـضـيرـ وـالـتـطـورـ. وكـماـ هوـ الشـائـنـ فـيـ كـلـ مـعـضـلـةـ كـبـرـىـ تـعـدـدـ الرـؤـىـ وـتـبـاـينـتـ الـاجـتـهـادـاتـ وـاـخـتـلـفـ النـظـرـاتـ بـيـنـ الدـعـوـةـ لـلـانـدـمـاجـ الـكـلـيـ فـيـ حـصـارـةـ الـعـصـرـ بـحـسـبـاـنـهاـ الـمـنـقـذـ وـالـخـلـاصـ وـالـمـسـتـقـبـلـ وـلـاـ مـجـالـ وـلـاـ خـيـارـ سـوـىـ ذـلـكـ لـمـنـ يـرـيدـ التـطـورـ وـالـتـقـدـمـ بـلـ لـمـنـ يـرـيدـ الـحـيـاةـ ذـاتـهاـ. وـبـيـنـ الدـعـوـةـ الـوـسـطـ الـتـيـ تـرـىـ أـنـهـ لـاـ غـنـىـ عـنـ حـصـارـةـ الـعـصـرـ بـلـ لـاـ الدـخـولـ فـيـهاـ وـلـكـنـ مـعـ الـحـفـاظـ عـلـىـ الصـالـحـ مـنـ تـرـاثـنـاـ. وـيـقـوـيـ الـجـدـلـ وـيـشـتـدـ مـعـ طـغـيـانـ الـقـوـةـ وـالـهـيـمـنـةـ فـيـ الـجـانـبـ الـمـقـابـلـ وـمـعـ الـضـعـفـ وـالـانـحـطـاطـ فـيـ جـانـبـنـاـ. وـيـظـلـ صـوتـ الـمـثـقـفـ مـرـتفـعاًـ وـقـلـمـهـ مـتـدـفـقاًـ يـدـعـوـ إـلـىـ مـاـ يـدـعـوـ إـلـىـهـ مـنـ فـكـرـ يـرـاهـ الـأـصـوبـ وـالـأـدـعـىـ لـأـنـ يـخـرـجـ بـالـأـمـمـةـ مـنـ حـيـرـتهاـ وـاضـطـرـاـبـهاـ وـلـكـنـهاـ دـعـوـةـ تـوـاجـهـ بـالـاسـتـرـابـ وـالـتـوـجـسـ وـيـنـظـرـ إـلـيـهاـ بـالـشكـ وـالـحـذـرـ. فـرـيقـ مـنـ الـأـمـمـةـ يـرـاهـ دـعـوـةـ لـلـاغـتـرـابـ عـنـ الـذـاتـ وـالـتـخـلـيـ عـنـ الـأـصـالـةـ وـالـخـصـوصـيـةـ وـيـدـعـوـ لـمـحـارـبـتهاـ وـنبـذـهاـ وـفـرـيقـ يـتـفـقـ مـعـهاـ وـيـقـبـلـ أـفـكـارـهاـ -ـ مـعـ شـيـءـ مـنـ الـحـيـرـةـ فـيـهاـ -ـ وـلـكـنـهـ لـاـ يـجـدـ الـوـسـيـلـةـ وـالـقـوـةـ لـمـلـامـسـتـهاـ وـتـجـرـيـبـهاـ وـالـتـيقـنـ مـنـ صـلـاحـيـتـهاـ أـمـاـ وـلـةـ الـأـمـورـ فـيـرـونـ فـيـ دـعـوـةـ الـمـثـقـفـ مـزـاـيـدـةـ لـاـ طـائـلـ مـنـهاـ إـنـهـ يـتـحدـثـ عـنـ أـشـيـاءـ غـابـتـ خـفـاـيـاـهـ عـنـهـ وـلـاـ يـعـلـمـ أـسـرـارـهاـ وـغـوـامـضـهاـ وـأـسـبـابـهاـ وـبـالـتـالـيـ هـوـ يـقـمـ نـفـسـهـ فـيـمـاـ لـاـ يـدـرـيـهـ وـهـكـذـاـ تـتـوـالـىـ مـعـانـاـتـ الـمـثـقـفـ فـيـ وـسـطـ مـجـتمـعـهـ بـيـنـ الرـفـضـ وـالـاسـتـرـابـ وـالـحـيـرـةـ وـقـلـيلـ مـنـ الـمـنـاصـرـيـنـ وـالـمـؤـمـنـيـنـ وـلـكـنـ الـمـثـقـفـ الصـادـقـ فـيـ دـعـوـتـهـ يـبـقـيـ ثـابـتاًـ عـلـىـ الـمـبـدـأـ لـاـ تـحـرـكـهـ الـهـزـاتـ وـلـاـ تـزـلـزـلـهـ الـمـتـغـيـراتـ يـدـعـوـ إـلـىـ مـاـ يـدـعـوـ إـلـىـهـ عـنـ قـنـاعـةـ وـوـعـيـ وـإـيمـانـ رـاسـخـ وـإـنـ اـرـتـابـ الـمـرـتـابـيـنـ وـرـفـضـ الـرـافـضـيـنـ وـاستـبـدـتـ الـحـيـرـةـ بـمـنـ لـمـ يـتـمـكـنـ مـنـ الإـدـراكـ بـيـقـيـنـ فـهـوـ يـعـلـمـ أـنـ صـرـخـتـهـ لـنـ تـذـهـبـ عـبـثـاًـ فـيـ طـبـقـاتـ الـجـوـّـ بـلـ إـنـ صـدـاـهـاـ سـيـتـعـالـىـ وـيـنـطـلـقـ وـيـبـلـغـ أـقـصـيـ الـأـقـاصـيـ وـأـنـ بـذـرـتـهـ الـتـيـ أـلـقـاـهـاـ فـيـ الـأـرـضـ سـتـنـمـوـ وـتـشـبـ وـتـعـلـوـ أـغـصـانـهاـ مـوـرـقةـ

مزهرة مثمرة وأنّ "كلمته التي قالها أو كتبها ستمضي في سبيلها لتسquer في عقول وأذهان كثيرة إن لم يكن اليوم فغداً" أو بعد مائة ومئات من السنين يكون منها الفكر القوي العميق المبشر بالخير وصانع الغد الجديد الأكثر إشراقاً وضرورة للحياة. إنّه المثقف الصادق المنبثق من ضمير أمّته وليس المتচنع الذي يتقلب كيما تتقلب الرياح فهذا هو الصدق وذاك هو الزيف وشتان ما بين هذا وذاك وإن توهّم الواهمون.►

المصدر: كتاب حول الثقافة